الفصل السابع

الكون ـ الدنيا

- معنى الكون
- حقيقة الكون
- الإله والكون
- الإنسان والكون
- آثار التصحيح القرآنى لحقيقة الكون

obeikandl.com

obeikandl.com

معنى الكون

الكون والطبيعة هي الركيزة الثالثة في التفسير القرآني الجديد الذي أعاد به الإسلام صياغة الوجود وتحديد أوضاعه وتنظيم علاقاته وتصحيح أخطاء البشر وأوهامهم في تصوره ، مما أفضى إلى آثار بالغة الوسع بعيدة المدى في فهم الإنسان للكون وعلاقته به وموقفه منه وموضعهما معًا من الخالق عز وجل ، وإلى آثار عميقة متراكمة في حياة الإنسان وحركته وعلمه وعمرانه .

الكون الذي جاء به القرآن في تفسيره الجديد له هو كون لم يسبق للبشرية معرفته ولا رؤيته ، وهو نقلة جبارة في مسيرة الإنسانية ، لا يقدرها إلا من يعرف كدها الطويل ورحلتها المضنية إلى تصور صحيح للكون ، لم تستطع الوصول إليه إلا بالمنهج القرآني وتفسيره الجديد الذي أعاد به تصحيح رؤية الإنسان للكون وما يترتب عليه من تصحيح وضعه بالنسبة للإنسان ومن الله عز وجل ، وتصحيح علاقة الإنسان به وموقفه منه ، ومن ثَم تصحيح طريقة تعامله معه ونشاطه فيه .

هذا التفسير القرآني يقع في ثلاثة محاور تتداخل وتتلاحم معًا لتكون نسيجًا متكاملاً متناسقًا ، وعزل أي محور منها عن الآخر أو الانحراف به يؤدى إلى تفكك النسيج الذي يجمعها ، والذي لا يكتمل التفسير المقبول والمفهوم إلا بوجوده متكاملاً متناسقًا تجتمع فيه الخيوط الثلاثة وتلتقي معًا .

ونكرر ما قلناه ، وهو أن هذه الرؤية الشاملة الكاملة المتناسقة للكون ليس لبشر قدرة أن يصل إليها كاملة متكاملة ونسيجًا مترابطًا كما هي ، ولأنه لا أحد يملك القدرة على الوصول إلى هذه الرؤية الكاملة والنسيج الشامل ، كان تصور الكون في نفسه ، وتصوره في علاقته بالإله وعلاقته بالإنسان هو أحد العقبات التي وقف عندها البشر في كل زمان وافترضوا وخمنوا ، وذهبوا وجاءوا ،

واتفقوا واختلفوا ، ثم انتهت كل محاولاتهم إلى فشل ذريع في التصور الكامل لحقيقة الكون وتفسيره تفسيراً مقبولاً في العقل والنفس ويوضح دور الإنسان فيه وعلاقته به بصورة متناسقة مع ما هو مفطور عليه .

فهناك من استطاع استكشاف الكون ومعرفة قوانينه ونظامه الظاهر ولكنه فشل في تفسير معناه ، وهناك من استطاع تفسير معناه في نفسه وقصر عن إدراك علاقته بالإنسان وعلاقته بالإله عز وجل .

ويقينًا أنه ما من رؤية في تاريخ الإنسانية ولا في مسيرة البشرية الطويلة استطاعت أن تفهم الكون فهمًا شاملاً ، معناه في نفسه ، وعلاقته بالله عز وجل وعلاقته بالإنسان ، ووضع كل منهما بالنسبة للآخر في صورة منطقية مفهومة يقبلها العقل ولا تتقلقل معها النفس ، حتى جاء القرآن فحل لغز الكون وفسر معناه وحدد علاقته بالإله وبالإنسان بما يرضي الإنسان الذي تستقر في نفسه حقيقة الألوهية ، وهي أيضًا مفطورة على المعرفة والتطلع إلى الكون الذي تعيش فيه .

وبهذا التفسير القرآني الجديد استقر لأول مرة معنى الكون ، وأصبح يمكن للإنسان أن يتعامل معه غير موزع الأجزاء ولا مشتت الكينونة كما كان قبل التفسير القرآني ، وكما هو كائن بعده في غير أهله ، إذا اختار الإنسان الألوهية رفض الكون ، وإذا انحاز إلى الكون جحد الإله .

* * *

حقيقة الكون

أول تصحيح في المنهج القرآني للكون هو تفسيره في نفسه كوحدة طبيعية ونظام .

قد يقال : ستدخل بنا في الإعجاز العلمى للقرآن ، ما شأن المعلومات العلمية البحت المتغيرة من زمان إلى زمان بتفسير خاطئ أو صحيح ، وهل ذكر القرآن لحقيقة علمية يعد منهجًا ورؤية ، وهب أن القرآن قدم حقيقة علمية لم تكن معلومة من قبل ، ما فائدتها إذا كانت البشرية لا تستطيع التعامل معها ولا الانتفاع بها إلا حين تصل إليها بنفسها ، فتكون تصديقًا للقرآن لكنها لا يمكن أن تكون تفسيرًا منه قبل أوان اكتشافها في الكون ، لأن من لم يصل إليها فعلاً لا يستطيع فهم المراد منها .

ونقول :

أما عن السؤال الأول : فليس الإعجاز العلمي مقصودنا الآن ومرادنا وأما عن الأسئلة الأخرى مجتمعة فنقول : لا ، ليست كل معلومة علمية هي معلومة بحت وفقط ، بل ثمة معلومات علمية هي في حقيقتها قواعد ومرتكزات كبرى تحكم تصور الإنسان للكون وعلاقته به والمطلوب منه فيه وموقفه إزاءه وعلاقتهما معًا بالإله ، والخطأ في هذه المعلومات المرتكزات والقواعد فادح الآثار في رؤية الإنسان للكون وفي فهمه لنفسه وللإله .

وهذه المعلومات المرتكزات والقواعد هي التي صححها القرآن في المقام الأول ، ليعيد تفسير الكون في عقل الإنسان ، وليوجهه إلى طريقة جديدة في النظر للكون وفهمه والتعامل معه ، ولينشأ علاقة فريدة بين الإنسان والكون لم توجد قبله .

هناك معلومات علمية بحت عن الكون والطبيعة ذكرها القرآن لتكون إشارات إلى صدقه وعلوه على الزمان وإحاطته به ، تنتظر وصول الإنسان إليها لتكون شاهداً على عصمة الوحي ، وهناك معلومات أخرى هي معلومات وفي الوقت نفسه تفسير وصياغة رؤية جديدة للكون .

فهذه المعلومات هي هدم لنظام وبناء تاريخي عقائدي كامل ، وكشف لزيفه وتلفيقه ، وإعادة تأسيس بناء آخر مكانه ، وهذه المعلومات المرتكزات لا يذكرها القرآن كمعلومات جزئية منفصلة في آية أو أخرى ، بل يجعلها الإطار الجامع لفهم الكون في كل آية يشير فيها إليه .

تكونت نظرة الغرب للكون قبل النهضة والثورة على التلفيق واتخاذ العلم وسيلة لتفسير كل شيء ، تكونت من خلال التراث الفلسفي الإغريقي ، الذي صار مدعومًا بعد المسيحية بسلطة الكنيسة وسلطان باباواتها وقديسيها الذين رأوا في هذه النظرية للكون سنداً ضخمًا لسلطان الكنيسة ، فقاموا بإعطائه صفة قدسية صار بها حقيقة لا يجوز مجرد التفكير فيها ، لأن التفكير معرفة والمعرفة هي نفسها الخطيئة .

هذه النظرة والرؤية للكون بدأت بأفلاطون صاحب الفلسفة المثالية : «**الذي يفرق بين الوجود الصادق وهو الدائم الذي له ما بعده ، وبين ما هو صائر ولكن لا وجود له أبدًا**»[1].

وبذلك شطر أفلاطون الوجود إلى قسمين : القسم العقلي المطلق الكامل المثالي الطاهر الكائن حقيقة رغم أنه غير موجود ، بل لأنه غير موجود! ، وقسم المادة الزائلة الباطلة التي هي غير كائنة وليس لها وجود في الحقيقة مع أنها موجودة!!

إذًا أفلاطون قسم الوجود إلى عالم الأفكار والمُثل الموجودة ، وعالم المادة المضطربة غير الموجودة ، فالنتيجة النهائية هي الثنائية في الوجود .

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص ٢٩ .

وجاء أرسطو فكرس الثنائية وجذّرها ، ذلك أنه : «**فرّق بين عالم ما فوق فلك القمر وعالم ما تحت فلك القمر**»[1].

فالعالم الأول هو القسم العلوي من الطبيعة الذي تستقر فيه الألوهية ، وهو السماء غير الفانية غير الناشئة من غيرها ، والتي تتحرك بفضل قربها من المحرِّك الذي لا يتحرك .

وأما العالم الثاني ما تحت فلك القمر السفلي فهو عالم الكون والفساد ، ولأن هذا العالم يقع بعيدًا عن المحرك ، ولأن المحرك يحرك ، أو بعبارة أدق يجذب العالم بشيء : «**أشبه بالقوة المغناطيسية**»[2]، أو كما يجذب الحبيب محبه إليه ، فإن قوة المحرك على تحريك الأشياء تتناسب عكسيًّا مع مقدار بعدها عنه[•].

ولذلك فعالم ما تحت القمر الذي تستقر فيه الأرض : «**نظرًا لبعده الساحق عن مشيئة الإله لا يحظى بنصيب من الحركة**»[3]

فهو ساكن ثابت لا يتحرك .

انتهت الفلسفة الإغريقية إذًا في تصورها للكون إلى تجزئته وتقسيمه إلى كونين أو عالمين متضاربين متنافرين ، يقف أحدهما في مقابل الآخر ، الكون الأول هو الكون المثالي النظري ، السموات والنجوم الأبدية الكاملة الخالدة التي تتحرك بطريقة دائرية سرمدية لا تنتهي هي رمز الكمال ، وهذا الكون هو محل وجود الإله وتأثيره أو هو مجال عمل حقله المغناطيسي!!

والكون الثاني هو الأرض ، أو ما تحت فلك القمر ، الساكن الخامل الثابت الذي لا يتحرك ، لأنه بعيد عن المجال المغناطيسي للإله .

---

(١) العلم والاغتراب والحرية ، ص١١٥ .

(٢) قصة الفلسفة ، ص١١٣ .

(•) هذه الصياغة من عندنا ، ولاحظ التشابه الشديد بين هذه الفكرة وبين منطوق قانون نيوتن في الجذب العام .

(٣) العقيدة والمعرفة ، ص٤٦ .

بإيجاز : في التصور الإغريقي ثمة مرتكزان أو قاعدتان تحكمان تصور الكون وفهمه وفهم علاقة الإله به وعلاقة الإنسان به وبالإله ، المرتكز الأول هو الثنائية ، الأرض مقابل السموات والنجوم ، وفرع عن هذه الثنائية هو ثبات الأرض وسكونها .

فماذا كان أثر هذا التصور على الإنسان وعلاقته بالكون؟

تفتت الكون وصار الإنسان يعيش كونين أو عالمين مختلفين منفصلين ، عالم أو كون هو فيه ، وكون آخر بعيد عنه ، ولأن الكون صار كونين ، ما يحكم أحدهما ويسري عليه غير ما يحكم الآخر ويسري عليه ، فقد أدى هذا التفتيت للكون ووضعه في صورة مفككة إلى فشل الإنسان في النظر إليه كوحدة واحدة ، ومن ثَم إلى فشل في التعامل مع هذا الكون المبعثر ، سواءً بالعلم أو العمل أو التطبيق .

وحين قسم أفلاطون الوجود إلى قسمين أصبح عالم المادة منهما : «**غير محدد ومحل تناقضات كثيرة ، فضلاً عن أن الطبيعيات بأسرها لم تعد موضع علم بل ظن**»[1].

فلأن فلسفة أفلاطون المثالية تعتبر أن الأشياء الحقيقية هي المثالية المجردة ، وأن كل تمثل لها في عالم المادة لا يمكن أن يفي بحقيقتها كما هي عليه ، صار الكون والعالم الذي يعيش فيه الإنسان ويراه كونًا وعالمًا غير حقيقي ، هو ظل ، وظل غير مطابق ومضطرب للعالم الحقيقي العلوي المثالي المنظم الذي ليس إلا فكرة غير قابلة للتحقق .

ومرة أخرى أصبح التعامل مع الكون بالعلم أو تطبيقاته أو العمل أو مجرد التفكير مستحيلاً ، بل : «**عبث لا يستسيغه العقل**» كما قال أفلاطون ، إذ كيف يتعامل الإنسان مع عالم وهمي زائف ومظاهر مادية باطلة وخداعة ،

---

(١) العلم والاغتراب والحرية ، ص١١١ .

وحتى لو أراد التعامل معه فأنَّى له ذلك وهو كون مضطرب مبعثر لا يسير على نظام واضح أو قواعد ثابتة .

وعضد أرسطو الثنائية حين قسم الكون إلى ما فوق فلك القمر وما تحته ، فصار الكون مبعثرًا مشتتًا إلى وحدات منفصلة لا رابط بينها ، يحكم ما فوق القمر منها الحركة الدائرية السرمدية ، ويحكم ما تحت فلكه السكون والثبات والسلبية ، فتأصل بذلك فشل الإنسان في الربط بين وحدات الكون وإمكانية التعامل معه بالعلم أو العمل أو مجرد التطلع لفهمه ، لأن ما يسري على الكون الذي يعيش فيه الإنسان غير ما يحكم الكون الآخر الذي لا سبيل لمعرفته ولا الوصول إليه .

وحتى الأرض لم يعد ممكنًا أن يتعامل الإنسان معها لا علمًا ولا عملاً ، أولاً : لأنها مادة والتعامل معها هبوط من مستوى الأفكار المجردة والصور إلى حضيض المادة التي هي أخس الموجودات .

ذلك أن أرسطو يرى ، ومن قبله أفلاطون ، أنه : «**كلما ارتقت الموجودات في سلم الوجود زاد نصيبها من الصورة وقل نصيبها من الهيولي . . . والموجودات الخسيسة هي التي تكون هيولي محضًا خالية من كل صورة**»[1].

وثانيًا : لأن التعامل مع المادة حركة ، والحركة قصور ونقص ، والكمال في السكون ، والاستقرار صفة الكمال في إله أرسطو الذي يحبه الإنجليز لأنه ، كما يقول ديورانت ، يشبه ملكهم ، يملك ولا يحكم!!

نوجز فنقول : الكون قبل المسيحية كان ثنائيًا مفككًا ، يقف في أوضاع متقابلة ، ولا يوجد رابط بين أجزائه ولا قانون واحد يحكمه ، فالنظر فيه عبث ، والعلم به مستحيل ، والتعامل معه قصور لا يليق بالإنسان الذي يريد أن يكون كاملاً .

---

(١) الله ، بحث في نشأة العقيدة الإلهية ، ص١٣٢ .

والنتاج النهائي لهذا هو وقوف الإنسان أمام الكون الموقف السلبي المطلق ، لا يفكر فيه ولا ينظر إليه ولا يتعامل معه ولا يمكن أن يطمح أو يجمح به خياله إلى العلم به ومعرفته ، لأن المثال الأعلى للإنسان هو الساكن الذي لا يفعل شيئًا سوى التفكير المجرد ودون النظر للأشياء ، ولأن الكون مبعثر مفكك بصورة لا تسمح لمن يريد أن ينظر إليه أو يتعرف عليه بذلك .

ثم !

ثم جاءت المسيحية والكون مستقر في العالم الغربي على هذه الصورة ، السموات أبدية خالدة سرمدية الحركة ، والأرض ساكنة في مركز الكون ، والحركة نقص وقصور ، والكمال في التأمل المجرد .

فقام واضعو المسيحية ومؤسسوها باستغلال هذا التصور وهذه الرؤية أبرع استغلال ، بدمجها في الرواية التوراتية لتكوين نظرة إلى الكون والحياة الدنيا تتفق مع ما يريدونه ، ومع التلفيق الذي تم به سد الفجوة وحراستها به .

كانت خطيئة آدم هي أكله من شجرة المعرفة ، فعوقب عليها بخروجه من الجنة ، وانفتح عليه صندوق الشر ، ولم يعد لأحد قدرة على غلقه ، وصندوق الشر هو الكون والدنيا التي فتحت عين الإنسان عليها .

إذًا هي الثنائية مرة أخرى ، أو هي بطريقة معدلة ، عالم الإله في مقابل الكون والطبيعة ، أو عالم الملكوت السماوي في مقابل الكون المادي الأرضي مصدر الشر وباعثه : «**لأننا نعلم أنه إن نقض بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناء من الله ، بيت غير مصنوع بيد ، أبدي ، فإننا نئن مشتاقين إلى أن نلمس فوقها مسكننا الذى في السماء**»[1]

فالأرض خيمة يفصل سقفها بين العالم الأرضي والعالم السماوي ، واكتسبت بذلك النتائج والآثار التي أرساها الإغريق جذورًا عقائدية راسخة ، صار بها

---

(١) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس .

الكون والطبيعة : «**شريرة مادية عفنة ، وهي تعني للبشر شيئًا واحدًا ، وحلاً معوقًا ثقيلاً يشده ويهدده بالابتلاع**»[١].

ولأن العالم شرير وهو وحل عفن فهو ، كما يقول القديس أوغسطين : «**غير جدير بأن يكون موضوعًا لدراسة**»[٢]

وما أرساه أفلاطون في فلسفته المثالية من عدم حقيقة هذا الكون المادي وكونه ظلاً للعالم المثالي الحقيقي قعّده وعقّده ، جعله عقيدة ، القديس أوغسطين عندما جعل العالم : «**يحمل معنى خافيًا لأن الله أخفى المعنى الحقيقي للطبيعة**»[٣].

ولأن العالم الحقيقي والمعنى الحقيقي للطبيعة خاف وغير ظاهر وهذا الكون مجرد عالم غير حقيقي أصبحت الطبيعة لغزًا غامضًا ولا جدوى من دراستها ، والمعرفة الحقيقية هي الهجرة إلى حياة التأمل .

إذًا هي الأفكار الأفلاطونية الأرسطية كما هي مع تعديلات مظهرية لإضفاء مسحة مسيحية عليها ، أو كما قال شارل جنبيير هو تفريغ التصور والرؤية الإغريقية بحذافيرها في قالب مسيحي .

أما اضطراب الطبيعة ، وعشوائية الكون وعدم انتظامه أو وجود نظام واحد يوحد بين أجزائه ويفسر علاقاته ، الذي كان نتاج الفكر الإغريقي العقلي المحض المستعلي على المادة ، فقد غدا بيئة مثالية وتربة خصبة لإيجاد تفسير مقبول ، وإن كان خاطئًا ، لأثر الإله في الكون سماءً وأرضًا .

فالطبيعة مملوءة بالشوائب كما قال توما الإكويني ، ولأنها مضطربة وغير منتظمة ولا قانون يحكمها ولا نظام واحد تسير به ، فإن : «**كل حادثة في الطبيعة تقرر بواسطة مشيئة تكتشف لإله مقتدر برحمته أو نقمته**»[٤].

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص٣٥ .

(٢) عندما تغير العالم ، ص٢٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص٣٤ .

(٤) العقيدة والمعرفة ، ص٢٠٣ .

فصارت بذلك الإجابة على أي شيء يحدث في الكون : إنها مشيئة الرب ، وهي إجابة يُعرض عنها الغربي ويسخر منها منذ اكتشف العلم ، أو لو شئنا الدقة منذ استعار العلم ثم اعتضد به ، ولكنها في زمنها كانت مريحة مقبولة ، فكل شيء في الكون والحياة عشوائي ، والإله قادر مقتدر على كل شيء ، فهذه الحوادث العشوائية لا يمكن أن يوجد شيء يفسرها إلا أن تكون مشيئة هذا الإله المطلقة .

وكانت هذه العشوائية التي تم اعتمادها للطبيعة كنظام! فرصة لا تعوض لتكريس السلطان المعنوي والروحي على الأتباع ، إذ بتعديل طفيف ومقبول أيضًا في ظل العشوائية الكونية ، بدلا من أن تكون الإجابة التفسيرية لكل ما يحدث في الكون : إنها مشيئة الرب ، تصير : إنها معجزة البابا أو القديس أو غضبه !!

لذلك ، كما يقول إتين جيلسون : «**كان العصر الوسيط (الغربي) هو عصر المعجزات**»[1].

ونصحح نحن هذه العبارة فنقول : إنه كان عصر تفسير أي شيء بالمعجزات ، وبذلك تكون الفائدة مزدوجة ، فمن جهة تم تفسير ما يحدث بتفسير ليس لأحد أن يتساءل بعده أو يطلب فهمًا وراءه ، ومن جهة أخرى يكتسب البابا والقديس الشرعية والسلطان بقدراته على إحداث معجزات في الكون كمعجزات يسوع .

إذًا استقر الكون في المسيحية الكنسية البابوية على نفس صورته الإغريقية الفلسفية ، مع ترسيخ جذور عقائدية له وإكسابه في ذهن الغرب صفة الحقيقة المطلقة التي لا تقبل المناقشة ولا التساؤل أو المراجعة ، ومن يفعل ذلك فليس إلا خاطئًا مجرمًا يريد أن يفتح صندوق الشر ويكرر خطيئة المجرم الأول التي ورثها الجميع وهم فى عقاب دائم على الأرض بسببها .

---

(١) إتين جيلسون : روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، ص ٤٢٦ .

ثم !

استعلن الله من جبال فاران ، وأشرقت شمس القرآن على هذه الدياجير ، لتطيح بكل هذا الهراء وتعيد رسم خريطة الكون وتفسير حقيقته أمام الإنسان ، ولكي تنزع منه العشوائية والمصادفة وتسييره بالعفاريت ومعجزات البابوات والقديسين ومشيئة الرب المفترى عليها ، جاء التفسير القرآني للكون ليعيد ترتيب أوضاعه وتفسير علاقة أجزائه ببعضها ، وليربط بينها ، لتعطي الكون معنى مفهومًا مقبولاً يتناسق فيه وجود الإنسان ويستطيع أن يتعامل معه ويستقيم فيه وضع الكون بالنسبة لخالقه .

أول انقلاب جاء به القرآن على كل هذه الخزعبلات ليعيد تصحيح صورة الكون وتفسيره ، هو أن الكون كله وحدة واحدة مترابطة وليس أجزاءً مفرقة مبعثرة .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (الحجر:٨٥)

فهذه الآية اليسيرة القصيرة التي يقرأها كل مسلم ، وربما لا يعي ما فيها تنسف كل ما كان في أذهان البشر عن الكون قبل شروق شمس القرآن .

فالكون حق وحقيقة وليس باطلاً ولا وهمًا ولا خداعًا ، ولا هو ظل لعالم وهمي غير موجود ، بل هو في نفسه حق وحقيقة .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ (ص:٢٧)

والسموات والأرض وحدة واحدة مترابطة ، خلقهما الله عز وجل كونًا واحدًا لا أشلاء مبعثرة ، وما يذكر القرآن السماء إلا ومعها الأرض ، فكأنه يرد على ما كان سائدًا قبله ، وظل سائدًا بعده في غير أهله إلى أن اقتبسوه منه .

فالسموات والأرض في القرآن وحدة واحدة في الفعل تطيعان لأمر الله معًا .

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت:١١).

والسموات والأرض تغضبان معًا .

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ (مريم:٩٠،٩١)

وآيات الله عز وجل في السموات والأرض معًا .

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف:١٠٥)

فالكون كله ، سماءً وأرضًا ، هو كون واحد متجانس متناسق موحد لا كونين ولا عالمين ، وإذًا فالتفسير القرآني للكون يهدم التصور والرؤية الإغريقية المسيحية الكنسية للسموات مقابل الأرض ويجعلها هباءً منثورًا .

وهذا الكون الواحد المتجانس في القرآن ، غير المنفصل ولا الممزق ولا المتقابل ، ليس ثابتًا ولا ساكنًا ولا خاملاً ، بل هو في حركة دائبة مستديمة لا تنقطع .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٣)

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ (إبراهيم:٣٣)

وهذا الكون الواحد الموحد الذي تتحرك فيه الأفلاك حركة دائبة ، لا يستأثر جزء منه بالله عز وجل دون جزء ، بل هو عز وجل ربه بكل ما فيه ، سماءً وأرضًا .

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنعام:٣)

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:١١٥)

والله عز وجل يملك العالم ملك هيمنة وسيطرة وقدرة نافذة ، لا قوة مغناطيسية وهمية يحركه بها دون إرادة فاعلة .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ (المائدة:١٧)

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢)

وهذا الكون يعمل بصورة منظمة مستقرة لا خلل فيها ولا اضطراب ولا عشوائية ، بل هو نظام محكم مستقر .

﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ ﴾ (الملك:٣)

﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ (يس:٤٠)

إذًا تفسير القرآن الجديد للكون وإعادة صياغة تصور الإنسان له هو أن الكون حقيقي وليس وهمًا ، واحد وليس متعددًا ، متجانس متكامل وليس متقابلاً ، متصل وليس منفصلاً ، متحرك وليس ساكنًا ولا ثابتًا ، منظم محكم وليس مضطربًا ولا عشوائيًا .

إذًا نؤكد ما قلناه سابقًا ، ما أتى به القرآن ليس مجرد معلومات أو حقائق علمية عن الكون ، ولكنها تصحيح لفهم الإنسان لحقيقة الكون وأوضاعه وعلاقات أجزائه ، وهو تفسير جديد للطبيعة لم يكن معروفًا قبل القرآن ، أخرجها به من صورتها الكئيبة التي وضعتها فيها الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي المعدل عنها إلى صورة جديدة ، لها وضعها ومكانها المفهوم في النسيج القرآني الذي يجعلها جزءًا متناسقًا من الوجود ، له معنى ووظيفة ، وللإنسان علاقة به غير احتقاره والفرار منه .

* * *

الإله والكون

قد يقال : نعم ، القرآن جاء بتفسير جديد للكون وصياغة غير مسبوقة له ، فجعله وحدة واحدة متناسقة الصورة مترابطة الأجزاء منظمة متحركة ، ولكن ماذا فى ذلك ، فقد وصل الغرب إلى النتيجة نفسها حين خلع الرداء الإغريقي الكنسي الذي كان يرتديه واتخذ العلم وحده هاديًا ومرشدًا .

ونقول : هذا التفسير الحقيقة الجديدة الذي جاء به القرآن للكون ونظامه ليس هو كل التفسير القرآني للكون ، بل إننا قلنا : إن التفسير الجديد للكون في القرآن ذو ثلاثة محاور أو خيوط متداخلة متآزرة يتكون منها معًا هذا النسيج التفسيري ، وقلنا : إنه ما من أحد في تاريخ البشرية ، لا قبل القرآن ولا بعده وحتى هذه اللحظة ، استطاع أن يجمع هذه المكونات الثلاثة معًا في تفسير مفهوم للعلاقة بينها ، وفي صورة تكون بها مقبولة في الذهن والنفس .

نعم . استطاع الغرب أن يصل بالعلم إلى معرفة حقيقة الكون كوحدة طبيعية ونظام ، ونسرد القصة بإيجاز .

الوضع الذي استقر عليه الكون والطبيعة كأجزاء مفككة متقابلة متضاربة ، بعضها ساكن لا يتحرك وبعضها متحرك لا يسكن ، وما يحكم هذا غير ما يحكم ذاك ، ولا صلة للإنسان ولا علاقة له بالاثنين معًا لأن أحدهما بعيد عنه والآخر شيء حقير أو شر لابد أن ينفر منه ، هذا الوضع ما كان ليستمر ولا ليصمد مئات السنين إلا بظهير من الجهل المطلق بحقائق الكون ، وبفهم مغلوط ، وبالحجاب الكثيف الذي تكفل التلفيق وما قام عليه من بناء بإيجاده وتغذيته وإحاطته وتسويره وحراسته ، ولكن حدث ما لم يكن منتظرًا ولا في

الحسبان : «**جاءت لحظة تاريخية مذهلة في تاريخ الغرب حين سقطت طليطلة ليكتشف كنوز المعرفة العربية**»[1].

وعندنا أنه أهم من كنوز المعرفة العربية اكتشف الغرب المنهج القرآني الذي تحمله هذه المعرفة كتطبيق له فى التعامل مع الكون ، النظر والبحث والرصد والتجربة لا التأمل الحالم وبناء كون نظري وهمي لا علاقة له بالواقع ولا بالأحداث الكونية المرئية التي كان الإغريقي ومن بعده المسيحي يراها بعيني رأسه ثم يعتبر أنها لم تحدث ، هذا العلم الذى : «**لم ينشأ لدى المصريين والبابليين واليهود والروس ، بل ولا في فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا وهولندا ، باستثناء واحد ، إنه ذلك العربي ، العرب الذين حرص البعض على نفي كل مساهمة لهم في العلم ، هم ، بفضل خصوصية بنائهم الفكري ووسائلهم المطردة قدموا شرارة الانطلاق الأولى**»[2].

ولم نورد هذا الاقتباس إلا من أجل : «**حرص البعض على نفي كل مساهمة لهم في العلم**» ، و : «**خصوصية بنائهم الفكري**» ، أي : القرآني .

فالغرب لم يخرج من القمقم إلا بمعرفته للمنهج القرآني ونقله في صورته التطبيقية ، واكتشف الغرب بالمنهج الجديد الذي لم يكن له عهد به ولم يعرفه قبل احتكاكه بالمسلمين ، الملاحظة والرصد ، أن حركة الكواكب لا تستقيم مع التصور الأرسطي للكون ، فاقتراح كوبرنيكوس[•] نموذجًا جديدًا تكون الشمس

---

(١) عندما تغير العالم ، ص٤٨ .

(٢) العقيدة والمعرفة ، ص٢٣٥ .

(•) ذكر المستشرق ديفيد كنج ، في : قاموس الشخصيات العلمية ، أن الفلكي المسلم ابن الشاطر الدمشقي ، مؤقت الجامع الأموي في دمشق ورئيس مؤذنيه ، هو واضع النموذج الشمسي ومبتكر فكرة دوران الكواكب حول الشمس ، وأن كوبرنيكوس استمد آراءه المنسوبة إليه من بحوث ابن الشاطر ، وفي منتصف السبعينيات اعترف الرئيس البولندي هنريك يابلونسكي ، وهو يفتتح متحف كوبرنيكوس البولندي ، ويزيح الستار عن تمثال له ، أن اثنين من العلماء العرب كان لهما أثر كبير في وصول كوبرنيكوس إلى نظامه الشمسي ، وهما ابن الشاطر الدمشقي وأبو عبد الله البتاني .

فيه هي المركز والكواكب تتحرك من حولها ، وبعده بما يقرب من ستة عقود أكد مرقاب أو تلسكوب جاليليو صحة نظرية كوبرنيكوس .

وتوالت جهود الفلكيين والرصدة ، إلى أن جاء إسحق نيوتن ووضع تصوره ونموذجه للكون في قوانينه الثلاثة المشهورة للعلاقة بين الكتل والأجسام ونظرية الجذب العام(•) التي طور فيها نيوتن واحتوى كل إنجازات السابقين قبله ، وخرج بالتوحيد الكوني المطموح إليه .

فبهذه القوانين وهذه النظرية وحّد نيوتن الكون كله وجعل الأجرام كلها ، والأرض بينها ، كونًا واحدًا يخضع لنظام واحد متناسق متجانس ، فوصل العلم الغربي بالتراكم وعلى مدى مئات السنين إلى التفسير القرآني للكون وحقيقته .

ونقول : بل إن الغرب لم يصل إلى شيء من التفسير القرآني على الإطلاق ، لأن التفسير القرآني ، كما قلنا ، نسيج متجانس متكامل لا بلبلة فيه ولا اضطراب ، وهو ليس تفسيراً لحقيقة الكون فقط ، وإنما هو تفسير شامل لحقيقة الكون ولعلاقة الكون في صورته الحقيقية هذه بالإله وبالإنسان .

جاءت الثورة العلمية على اللاهوت والتفكير الأفلاطوني الأرسطي الأوغسطيني ، فوصل الغرب إلى اكتشاف حقيقة الكون من مظاهره وحركة أجرامه ، لكن بينما كان الغرب يحل عقدة الكون كان يعقد عقدة أخرى ، اكتملت حبكتها مع اكتمال حل العقدة الكونية ، فخرج الغرب بذلك من مشكلة إلى مشكلة أعوص ، وحل عقدة الكون بعقد عقدة أخرى !

(•) ١- نظرية الجذب العام : كل جسمين متجاورين يتجاذبان بقوة تتناسب طرديًّا مع حاصل ضرب الكتلتين وعكسيًّا مع مربع البعد بينهما ، ٢- القانون الأول : كل جسم يظل على حالته من السكون أو الحركة ما لم تتدخل قوة مؤثرة خارجية تغير من حالته ، ٣- القانون الثاني : إذا أثرت قوة على جسم فإنه يتحرك في نفس اتجاه القوة مسافة تتناسب طرديًّا مع مربع القوة الواقعة عليه ، ٤- القانون الثالث : لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه .

كيف؟

في المسيحية الإغريقية كان الكون مبعثراً مفككًا وأحداثه عشوائية ، لكن وضع الإله فيه كان مريحًا مقبولاً ، فالأحداث العشوائية تفسرها مشيئة الإله المطلقة ومعجزات البابوات والقديسين ، والكون المفكك المجزء هو هكذا لأن الإله يوجد في جزء منه دون جزء ويحركه بقوة جذب وليس بإرادة عند أرسطو ، أو هو في ملكوت سماوي علوي بينما الأرض ثابتة منفصلة عنه في المسيحية ، لأنها لُعنت بسبب آدم وخطيئته ، وما يسري عليها غير ما يسري على الملكوت السماوي .

والآن اكتشف الغرب حقيقة الكون وأنه واحد ، أرضه مثل غيرها من الكواكب ، مثل شمسه مثل غيرها من النجوم ، كلها كتل متحركة يحكمها قانون واحد ونظام واحد ، فأين العقدة الجديدة إذًا التي تكونت بحل العقدة القديمة؟

ما هو دور الإله في هذا الكون؟

المشكلة هي أن وضع الإله قد صار قلقًا في الكون الجديد ، فإذا كان الإله قادرًا قدرة مطلقة فلابد أن يكون قادرًا على أن يفعل أي شيء متى شاء ، ولكن الكون منظم دقيق يحكمه نظام صارم وقانون لا يختل ولا يتخلف .

هذه هي العقدة : كيف يمكن تفسير وجود الإله وطلاقة قدرته في ظل الكون الجديد الواحد الموحد الذي يعمل بنظام واحد صارم وقانون محكم؟!

إذا قيل إن الإله قادر وجب أن يكون الكون مختلاً وحوادثه عشوائية تبعًا لمشيئة الإله ، والكون غير مختل ، وإذا قيل إن الكون تسيره قوانين محكمة ونظم ثابتة ، كيف ، أين إذًا مشيئة الإله ، ناهيك عن أين معجزات البابوات والقديسين التي كانت تقع كل يوم؟

لابد من تفسير يستطيع الإنسان الذي أصبح عاقلاً وله نفس تطلب الفهم أن يفهمه ويقبله ، كيف يكون الإله موجودًا مطلق القدرة نافذ الإرادة ، وفي الوقت

نفسه يكون الكون منظمًا ويعمل بصورة دقيقة صارمة لا تتخلف ويبدو في حركته وقوانينه وكأنه مستغنٍ عن الإله؟

هذه هي العقدة التي حبكها حل العقدة الأولى ، وهى العتبة التي وقف فيها الحمار الغربي ولم يستطع أبدًا اجتيازها .

وأخذ الغرب يخبط خبط عشواء في كل واد بحثًا عن إجابة يحل بها العقدة الجديدة ، فمن قائل مثل ما قال توما الإكويني ، القديس الذي اضطر للانحناء أمام رياح العلم والقانون الصارم للكون : «**هناك قائمة من الأشياء لا يستطيع الرب أن يعملها**»[1]**!!**

ومن قائل مثل اسبينوزا : «**الإله هو الطبيعة ، والكون يسير بنظام دقيق وقانون صارم لأن الإله قد حل فيه ، فالإله والطبيعة شيء واحد**»[2].

ولم يجد البعض تفسيرًا يستطيع أن يفهم به كيف تكون الطبيعة متسقة منظمة ، دقيقة صارمة ، تعمل كالآلة الميكانيكية التي تبدو وكأن لا أحد يتدخل في عملها ولا أوامر تصدر لها من خارجها ، إلا بالاكتفاء بالكون نفسه ، فهو النظام وصانعه ، وهو القانون وواضعه ، وهو الموجود وواجده ، فانتهى الأمر إلى إلغاء الألوهية مطلقًا وإعلان موت الإله في عصر العلم كما قال نيتشه .

ولأن الألوهية حقيقة في وجود الإنسان وكينونته ، استطاع بعضهم إيجاد تفسير أخف وطأة على العقل وأقل طحنًا للنفس الإنسانية ، وهو أن الإله خلق الكون ثم تركه وانفصل عنه ، فالكون يسير كالساعة التي صنعها صانعها ولا حاجة بها إليه بعد ضبطها وبدء سيرها .

ولم يستطع أي من هذه التفسيرات المبتورة المشوهة أن يرضي العقل ولا النفس البشرية ، فكان رد الفعل عليها في الجانب الآخر أزمة العقل ونزعة العداء له ، وإنكار الطبيعة التي سوف يؤدي الإيمان بها إلى إنكار وجود الإله ،

---

(١) عندما تغير العالم ، ص٦٩ .

(٢) قصة الفلسفة ، ص ٢٠٥ .

والثورة على كل منجزات العلم الغربي الذي لم يزدد البشر به إلا شقاءً ونصبًا كما قال جوته .

وقف الحمار الغربي إذًا في العتبة لا يعرف كيف يحل المشكلة ، كيف يكون الإله قادرًا مطلقًا والطبيعة منظمة محكمة ، كيف يصل إلى تفسير للكون وعمل للطبيعة وعلاقة له ولها بالألوهية لا يكون الإله فيه عاطلاً ساكنًا عندما تعمل قوانين الطبيعة والأسباب الطبيعية مختلة عندما يعمل الإله؟

ولم يصل الغرب إلى الإجابة حتى الآن(•) ، لأنه لا سبيل له إليها إلا من الإله نفسه وبوحي معصوم لا تتطرق إليه أوهام البشر ولا تلتبس به تحريفاتهم وضلالات عقولهم .

هذه المسألة المعضلة والعقدة التي اعتاصت فيها أعاظم العقول في الغرب منذ افتضح أمر التلفيق وتم اكتشاف حقيقة الكون ، وتاه فيها الفلاسفة وحاروا ، وقامت لحلها المذاهب والمذاهب المضادة ، هذه المعضلة التي لا حل لها ، حلها القرآن في يسر وبساطة ، بساطة الحقيقة التي هي أخفى الأشياء عن الذهن الذي لا يعلمها .

الله عز وجل مطلق القدرة لا يحد قدرته شيء .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ (الكهف:٤٥)

وهو عز وجل قادر على فعل أي شيء يريده في كونه وخلقه .

﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (مريم:٣٥)

وكل ما يحدث في كونه بإذنه وأمره .

﴿ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ ﴾ (الأعراف:٥٨)

﴿ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَا ﴾ (إبراهيم:٢٥)

• انظر على سبيل المثال : فرانكلين باومر : الفكر الأوروبي الحديث ، الاتصال والتغير والأفكار ، جـ ٤ ، فصل احتجاب الإله .

ولكن شاءت إرادته عز وجل أن يخلق كونه ويسيره لحكمة منه بنظام دقيق .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩)

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢)

وجعل الله عز وجل لكونه وفي خلقه قانونًا محكمًا يحكم حركته وعلاقاته واجتماعهم .

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (فاطر:٤٣)

إذًا فالله عز وجل موجود مطلق القدرة ، والكون محكم في تركيبه ، والطبيعة منظمة دقيقة في سيرها ، والله عز وجل هو الذي أوجد هذا النظام والإحكام فيها ، ووجوده يتوقف عليه عز وجل .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ (فاطر:٤١) .

﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ (الحج:٦٥).

فأين المعجزات ؟

المعجزة موجودة ، وتفسيرها مفهوم مقبول في العقل والنفس ولا يتناقض مع نظام الطبيعة وإحكامها ، لكنها المعجزة في مفهوم الإسلام وليست تهاويل الكنيسة .

فالله عز وجل مطلق القدرة أمره نافذ في كونه ، ولكنه عز وجل جعل فيه سننًا وقوانين ونظامًا ، وهو عز وجل يخرق هذا النظام حين يرسل رسولاً بوحيه ورسالته ، ليؤيده بآية أمام قومه تكون علامة ودليلاً على القوة المهيمنة والقدرة المطلقة التي أرسلته .

ولأن المعجزة هي : «**أمر خارق للعادة**» ، فوجود المعجزة وتعريفها الإسلامي الدقيق هو تأكيد لوجود القانون والنظام الذي تخرقه وليس إلغاءً له ، وهذه المعجزة لأنها أمر خارق للعادة ، أي للنظام والقانون والسنن ، فهي

لا تقع كل يوم ، وإلا لمَا كان ثمة سنن ولا نظام ولا قانون ، ولمَا كانت المعجزة نفسها خارقًا وبرهانًا على القدرة المطلقة .

ما نريد أن نقوله ، هو أن التفسير القرآني لعلاقة الكون بالله عز وجل احتوى المعجزة ، فأصبحت مقبولة داخله ومفهومة في العقل والنفس كخرق للنظام والقانون تأييدًا لرسول أو نبي وبيانًا لطلاقة القدرة الإلهية ، وليس لتسيير الكون بها .

فليست المعجزة نهبًا مستباحًا لكل من هب ودب ، قديسًا أو بابًا ، وفي كل أسبوع وفي كل يوم ، فتكون النتيجة كونًا عشوائيًا ، كل شيء فيه يحدث بالصدفة أو حسب رغبة البابا .

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام نفسه في المنهج القرآني ليس في قدرته أن يأتي بهذه المعجزة من عند نفسه ولا برغبته وإرادته ولا حين يشاء ، بل هي أمر إلهي محض متعلق بطلاقة القدرة الإلهية ولا دخل لبشر فيه ، ولا حتى النبي الذي تظهر على يديه .

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (غافر:٧٨).

وفي الوقت الذي كان يحرص فيه كل دجال في الغرب أن يؤكد قدرته على صنع المعجزة ويأسر أتباعه بنسبة ظواهر الكون وأحداثه إلى قدراته ومعجزاته ، كان محمد رسول الله المؤيد بالوحي والمعجزات الفعلية يعلم أصحابه في حسم أن الكون يسير بنظام وقانون لا يختل بإرادة بشر ولا من أجله .

«الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته»[1]

وفي الوقت الذي كانت تدعي فيه الكنيسة والبابوات معرفتهم لكل شيء ويقومون بتفسير ما يفهمون فيه من ظواهر الطبيعة ومالا يفهمون ويكسبونه

---

(١) رواه مسلم .

عصمة زائفة ، كان أبناء المنهج والمنظومة القرآنية يقفون عند آياته فيفسرون وينقلون المعارف التي وصل إليها عصرهم وينسبون كل قول أو تفسير لصاحبه ، ثم بعد ذلك يفوضون العلم الحقيقي إلى الله عز وجل ، ويقرون بقصورهم عن فهم الآيات الكونية في القرآن ويقولون مع الإمام الطبري هذه الجملة التي ينبغي أن تكتب بمداد من نور على صفحة السماء ، لتظل شاهداً دائمًا للبشرية على النقلة الحضارية التي جاء بها القرآن وصنع بها أهله .

«ونقف عند ما لا علم لنا فيه»

إذًا حل القرآن العقدة واللغز الذي مازال الغرب يبحث عن حله ، الله عز وجل قادر مقتدر والطبيعة منظمة دقيقة ، لأن الله عز وجل أراد لها ذلك ، وهذا النظام والإحكام نفسه متعلق به هو عز وجل ، فهو الذي يحفظه ويقوم عليه .

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ (البقرة:٢٥٥)

والمعجزة خرق لهذا النظام والقانون بأمر الله عز وجل وحده ولمهمة محددة ، يعيد عز وجل بعدها النظام والقانون والدقة ليسير بها الكون والخلق .

تفسير مريح مقبول لا تضارب فيه ولا قلاقل ، ومع ذلك نقول : هذا التفسير يصبح شاملاً نسيجًا فريدًا وحده ، غير مسبوق ولا ملحوق ، ولا شيء في تاريخ البشرية يشبهه أو يقاربه ، بإضافة الخيط الثالث الذي يشد النسيج ويحكمه .

هذا الخيط الثالث هو : لماذا؟!

* * *

الإنسان والكون

قد يقع البعض في وهم السذاجة ، وهو يرى التفسير القرآني البسيط السلس الذي لا تعقيد فيه ويبدو وكأنه بديهة ، فيظن أن المسألة هنية وحلها يسير .

ونقول : لا ، فالتفسير القرآني بسيط سلس لأنه الحقيقة التي لا تعقيد فيها ، أما ما وراء هذه البساطة البادية فبعيد الغور عسير المنال ، فهذا التفسير يحتوي في داخله الإجابة على كل الأسئلة التي خطرت في عقول البشر ، منذ وجدوا وحتى الآن وإلى يوم القيامة ، عن حقيقة الكون وطبيعته ونظامه وموضعه من الإله وأثر الألوهية فيه .

فهذه بساطة مزارها قريب لكن دون ذلك أهوال كما قال أبو العلاء المعري .

ونعود إلى الخيط الثالث الذي يكون به التفسير القرآني نسيجًا محكمًا فوق طاقة البشر أن يصلوا إليه أو أن ينسجوا مثله .

لماذا ؟!

لماذا خلق الله عز وجل الكون منظمًا محكمًا يسير بنظام دقيق وقانون محكم؟

سؤال عجيب!! ، ولكن خيوط التفسير القرآني تستوعب كل سؤال يمكن أن يرد على عقل بشر أو يدور في نفسه .

إذا كان الله عز وجل مطلق القدرة نافذ الإرادة ، إذا أراد فَعَل ، وما أراد كان ، فلماذا لم يخلق عز وجل الكون على الصورة التي رسمها له الإغريق وورثتها المسيحية ، لماذا فعلاً لم يخلق الله عز وجل الكون عشوائيًّا يسير بمشيئته المطلقة وتقع حوادثه وظواهره بإرادته وحدها دون نظام أو قانون ، لماذا جعل الله عز وجل للكون نظامًا وقانونًا ، وما الحكمة في ذلك ؟

قد يقال : هذه إرادة الله وتلك إرادة الله ، وما أراده الله كان .

نعم . هذه إجابة مقبولة ، فالله عز وجل مطلق في إرادته وما أراده لتسيير كونه وخلقه كان ، فهو عز وجل : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٣).

وقد يقال : إن النظام والقانون والإحكام جمال ، والتفكك والبعثرة قبح ، والله عز وجل لا يخلق شيئًا إلا على صورة الجمال .

وهذه أيضًا إجابة صحيحة ، فالكون المنظم الدقيق المتناسق جمال ، والكون المبعثر المشتت قبح ، فإذا كان الله عز وجل قادراً على خلق الكون هكذا وهكذا ، فخلقه على صورة الجمال أجمل وأولى بالخالق العظيم .

ويبقى التفسير القرآني هو الشمل والأكمل ، يحتوي ذلك كله ويجعله جزءًا من نسيج يشد بعضه بعضًا .

الحكمة في أن الله عز وجل خلق الكون كله على نظام واحد متناسق وبقانون صارم دقيق هو الإنسان وعلاقته بالكون .

فالله عز وجل خلق الكون ليكون مكانًا لاستخلاف الإنسان فيه ، فالإنسان هو خليفة الله عز وجل في أرضه وكونه الظاهر أمامه ، وهذا الإنسان الخليفة لا يملك قدرات الخالق الذي استخلفه ، فقدراته محدودة وعلمه مقيد وسلطانه جزئي ، لذلك اقتضت حكمته عز وجل أن يجعل الكون على الصورة التي تمكّن الإنسان المستخلَف من التعامل معه والعلم به والسير فيه والاعتبار منه .

فالإنسان الخليفة المستخلَف من الله عز وجل مطالب بالسعي في الكون طلبًا للرزق وحفظًا لحياته ونوعه ، ولأن قدراته محدودة جعل الله عز وجل الأرض له ذلولاً ممهدة منظمة حتى يمكنه أن يتعامل معها ويستخرج رزقه منها .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ (الملك:١٥)

وهذا الخليفة له سلطان في الكون كله ، وهو مسؤول عنه ومحاسب عليه ، وهو مطالب بالحفاظ على الكون والمخلوقات واستخدامها في حدود مهمة الخلافة ، وهذا يقتضي منه العلم بالكون وفهمه لتحقيق مهمته فيه ، ولأن علمه محدود بقدراته القاصرة جعل الله عز وجل الكون على الصورة التي تتناسب مع وسائل معرفته وإدراكه ، فجعله منظمًا منسقًا مرتبًا لأنه لو لم يكن على هذه الصورة لتوقف كل سعي للإنسان فى الكون وكل علم له به ، ولانبتت العلاقة بينه وبينه ، وإذًا لانتهت مهمته الاستخلافية قبل أن تبدأ .

فالكون منظم موحد يسير على قانون حتى يتمكن الإنسان من فهمه وتفسيره واستغلاله كما أراد عز وجل له .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠)

﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ (الأعراف: ٥٤)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾

(الجاثية: ١٢، ١٣)

فلو لم تكن السموات والأرض والبر والبحر مسخرة للإنسان مجعولة له على صورتها المنظمة المريحة التي تمكنه من السير والبحث فيها والتعامل معها ، لخرجت كلها عن طوعه وارتفعت عن قدرته ، ولما كان له سلطان عليها ، ولما كان له حياة ولا وجود على الأرض .

وحين يخرج الإنسان على الخالق ويتمرد على مهمته وعلى خالقه بما يخرج على حدود تقويمه ، يُخرج الله عز وجل الكون عما اعتاده الإنسان عليه ويرفع منه أمر التسخير والتذليل والانتظام ، فلا يكون في مقدور الإنسان أن يتعامل معه مهما حاول ، لأنه لا يتعامل معه بقدراته وإنما يتعامل معه بتسخيره وتنظيمه المضبوط على قدر علمه وقدراته .

فإذا ارتفع أمر التسخير ارتفع الكون عن طاقة الإنسان وخرج عن حدود قدراته ، فالماء مصدر حياة الإنسان وباعث النماء في الكون على صورته التي هو عليها : عيونًا وأمطارًا مهذبة مطوعة ينهل منها الإنسان ويأكل مما تنبت .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (النحل:١٠،١١)

فإذا تمرد الإنسان أَذِن الله عز وجل للماء بترك أمر التسخير والانتظام المتناسب مع طاقته ، فيكون فيه هلاكه وفناؤه .

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ (القمر:١١،١٢).

والبحر الهادئ الساكن المسخر للإنسان ، يحمل عليه الفلك ويستخرج منه طعامه وزينته .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:١٤).

هذا البحر الوديع الهادئ يثور بارتفاع أمر التسخير والقانون الذي يحكمه فيكون إغراقًا وإفناءً .

﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ (البقرة:٥٠)

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ (الإسراء:٦٩).

والأرض الذلول المسخرة لرزق الإنسان ومنافعه ، إذا عق وجحد ووصل به استكباره إلى الاستعلاء على خالقه ، رُفع أمر التسخير والنظام عن الأرض فتكون خسفًا يجعل المستكبر خبرًا لا أثر له .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ (القصص:٨١).

والرياح المسخرة المضبوطة على قدر حاجة الإنسان منها ، تدفع السحاب وتأتي له بالماء .

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾ (فاطر:٩).

وهي التى تقوم بمهمة التلقيح وحفظ النماء والنبات في الأرض .

﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ (الحجر:٢٢).

هذه الرياح السلسة المذللة على قدر ما يستطيع الإنسان الانتفاع بها في مهمته على الأرض ، هي نفسها إذا خرج الإنسان عن مهمته خروجًا لا تقويم له ، يُخرجها الله عز وجل عن النظام والتذليل الذي أوجدها فيه ، فتصير قصفًا ودمارًا لاحد له ، ولا قدرة لمخلوق على الصمود أمامه .

﴿ وَفِى عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ (الذاريات:٤١-٤٢).

وبعد أن تنتهي مهمة الإنسان الاستخلافية على الأرض وفي الكون ، يُرفع النظام ويطوى الإحكام ويبعثر الكون كله ، لأنه ما جُعل منظمًا دقيقًا محكمًا إلا ليكون في نطاق قدرة الإنسان على التعامل معه علمًا وعملاً .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴾

(الحاقة:١٣-١٦)

نعود فنقول : الله عز وجل خلق الكون محكمًا ، وسيّره على نظام دقيق وقانون ثابت ، لأنه ليس في طاقة الإنسان أن يتعامل معه علمًا وعملاً وقيامًا بوظيفته فيه ، في حدود قدراته الجزئية القاصرة ، إلا وهو على هذا النظام وبهذه الدقة ، فعلم الإنسان بحث عن قانون أو نظام ، ولأن هذا العلم محدود وليس محيطًا ولا شاملاً ، فلو كان الكون بلا نظام وقانون وإحكام لما كان

للإنسان علم ولا استطاع فهم أي شيء في الكون ، بدءًا من لماذا وكيف تبيض الدجاجة إلى كيف تتحرك النجوم والكواكب .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (يونس:٥)

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (الإسراء:١٢)

وعمل الإنسان يتطلب قانونًا ونظامًا ثابتًا يكون في مقدوره فهمه وتصميم حياته عليه ، حتى تكون مستقرة غير متقلقلة ولا مضطربة أو هائمة ، من أبسط الأشياء إلى أعظمها ، بداية من البذرة التي يرميها في الأرض ويعرف أن النظام الثابت والقانون المنتظم سوف يجعلها تنبت وتثمر ، إلى إطلاق القمر الصناعي الذي يحسب له مداره ويعلم أنه سيدور فيه لأن النظام دائم لا يتقلقل والقانون لا يتغير .

ولو لم يكن الكون بهذا النظام والثبات والدقة ، لما ألقى فلاح بذرة في أرض قد تنبت وقد لا تنبت ، ولما أطلق الإنسان قمرًا صناعيًّا في فلك لا يعلم إن كان في اللحظة التي سيصل إليه فيها على الوضع الذي كان فيه أم لا ، ولما وصل الإنسان إلى صناعة مثل هذا القمر ابتداءً .

هذا النظام وهذا الإحكام وهذه الدقة هي إذًا مفتاح الإنسان الخليفة للتعامل مع الكون الذي هو مستخلف فيه .

هذه واحدة .

وأما الثانية ، فهي أن هذا الخليفة ضعيف تغلبه أهواؤه وشهواته ، وهو دائمًا عرضة للانحراف بوساوس الشيطان ، عدوه الذي يترصد له ، أو باضطرب عقله في الفهم أو بهوى نفسه وما تميل إليه ، لذلك تكفل عز وجل أن يرسل له رسلاً يعرفونه الحق إذا زاغ عنه ، ويعيدونه إلى الصراط المستقيم والأصل الذي بدأت به ومنه البشرية إذا حاد عنه ، ويعيدون تصحيح ما صنعته ضلالات البشر

وأوهامهم ، ويقومون بتفسير ما غمض عليهم أو خفي عنهم أو تلبس في أذهانهم من حقائق عن الله عز وجل وعن الإنسان والكون الذي يعيشون فيه .

فاقتضت حكمته عز وجل أن يكون الكون منظمًا محكمًا دقيقًا بديعًا ، لكي يكون دالاً بنفسه وبنظامه على الذي يقوم على نظامه ويحفظه ، لأنه لو لم يكن الكون على هذا النظام المحكم وهذه الدقة لما كان للإنسان علم ، ولما كان للكون عنده أي دلالة خلف بعثرته ، إذ هو لا يستطيع التعرف عليه أصلاً .

أما والكون منظم محكم ، فالإنسان قادر على التعرف عليه والعلم به والوصول إلى ما يحكمه من نظام ، سواء عرف القانون أو جهله ، فيكون علمه بالنظام البادي ثم وصوله بعد ذلك إلى القانون الساري دليلاً على هذا الإله الخالق الواحد الأحد الذي يسير كل شيء في كونه بنظام واحد وقانون محكم .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

ولو لم يكن الأمر هكذا ، رحمة من الله بعباده ، لحق للإنسان أن يلتبس عليه أمر الكون ويتوهم إدارته وتسييره بآلهة متعددة ، كلٌّ ينفذ إرادته في جزء من الكون أو في نطاق نفوذه عليه وسلطانه فيه .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾

(الإسراء: ٤٢).

هذه هي إجابة السؤال : ما هي الحكمة في أن الله عز وجل خلق الكون بهذا النظام والثبات والإحكام والدقة ، الإجابة التي يلتئم بها نسيج التفسير القرآني للكون ، فلا يكون فيه منفذًا ولا ثغرة غير مفهومة ولا مقبولة أو غير متوافقة مع العقل والنفس .

وهذا النسيج هو الذي تنفك به جميع عقد الكون وتنحل ألغازه ، وتستبين أمام الإنسان حقيقته وتفسيره ومعناه وموضعه من الإله ووضع الإنسان فيه .

* * *

obeikandl.com

آثار التصحيح القرآني لحقيقة الكون
على فهم الإنسان له وصلته به

آثار التصحيح القرآني لحقيقة الكون في نفسه ، ولعلاقته بالله عز وجل وبالإنسان ، بادية ظاهرة بنفسها حين توضع إلى جوار ما كانت عليه البشرية خارج فيئه وظلاله وما زالت .

ونوجز هذه الآثار والنتائج مجملة :

١- الكون بمادته حق وحقيقة ، وليس باطلاً ولا وهمًا ولا ظلاً خداعًا لحقيقة مطوية مخفية ، وما يراه الإنسان فيه من أجرام وظواهر حقيقة ، وما يراه الإنسان بحواسه منها حقيقة يجب التعامل معها كما هي ، وهذا هو واجب الإنسان تجاه الكون .

٢- استقرار الكون الحقيقي أمام الإنسان كوحدة واحدة غير متعددة ولا منقسمة ولا ممزقة ، بل وحدة واحدة محكمة لا اضطراب فيها ولا عشوائية ولا بعثرة ، وهذا الكون والطبيعة كلها في حركة دائبة ، وهي ديدنه وطبيعته .

٣- الكون والطبيعة ليست شرًا ولا لعنة ، ولا هي تقف موقف النقيض من الإله عز وجل ، بل هو كون مخلوق له عز وجل يسير بأمره ، ونظامه قائم بأمر الله وبحفظه عز وجل له ، فهو طائع لله عز وجل بنظامه وإحكامه وحركته .

٤- المعجزة هي خرق للنظام والقانون بأمر الله عز وجل وحده ، يعيد بعدها عز وجل الكون إلى نظامه وقانونه ، وليست المعجزة قانون الكون ولا هو يسير بها ، وهذه المعجزة ليست في قدرة بشر ولا طاقته ، بل هي أمر إلهي محض .

٥- النظام الكوني الطبيعي ليس معطلاً لإرادة الإله ، لأن هذا النظام هو نفسه من عند الله عز وجل ، وهو سبحانه الذي يحفظه ويقوم عليه ، ولا بقاء له إلا به عز وجل .

٦- الله عز وجل خلق الكون منظمًا محكمًا ، لأن النظام جمال لائق بالخالق العظيم ، ولأن هذا النظام هو الصورة الوحيدة التي يستطيع بها الإنسان الخليفة أن يتعامل مع الكون في إطار علمه القاصر وقدراته المحدودة ، كان من رحمة الله عز وجل بخليفته أن جعل الكون كله منظمًا بهذه يالطريقة ليستطيع العيش فيه والعلم به والتعامل معه .

٧- من وظيفة الإنسان ومهمته الاستخلافية على الأرض أن يقوم على هذا النظام ويحفظه بتحقيق أمر الله عز وجل فيه ومراده منه ، وهو مسؤول عن ما يحدث في هذا النظام من اختلال أو اضطراب ، لأنه ما يحدث إلا بسبب فساده وحين يضع السلطان الذي منح له في غير موضعه ، والكون ما هو إلا مأمور من الله عز وجل بطاعته .

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ (الروم:٤١) .

٨- العقل الإنساني وحده قاصر عن فهم حقيقة الكون وتفسير علاقته بالإله وبالإنسان ، وانفراد العقل بمحاولة تفسير شامل للكون مؤد لا محالة إلى خلط ولبس وتصور وهمي للكون ، وإلى وضع الوجود كله فى صورة متضاربه متنافرة ، فلابد للعقل الإنساني لكي يفهم الكون على حقيقته من مرشد أعلى منه أشمل وأكمل وأكثر إحاطة ، هو الوحي .

ولولا التصحيح القرآني لحقيقة الكون في نفسه كوحدة طبيعية محكمة ونظام متحرك ، ولولا تصحيحه لمعنى العلم عند اتصاله بالكون والطبيعة ، وهو ما سنعلمه لاحقًا ، لظلت البشرية كلها شرقًا وغربًا على حالتها الأولى من الجهل التام بحقيقة الكون وعلى موقفها المتعثر لا تتقدم خطوة ، كما كانت قبل التصحيح القرآني .

٩- تكَوُّن صورة حقيقية مستقرة للكون مفهومة واضحة ، والوصول إلى تفسير مقبول في العقل والنفس لعلاقة الكون بالله عز وجل وموقف الإنسان منه وما يجب عليه نحوه ، فيعرف الإنسان بذلك حقيقة العالم الذي يعيش فيه وأبعاد علاقته به ، ويفرغ لأداء مهامه والقيام بوظيفته فيه مع حب ومودة له وارتباط به ، لأنه منظم لراحته ومحكم لإعانته وهو طائع له مطيع بأمر الله عز وجل ، وهذا الكون ما يخرج عن النظام والطاعة للإنسان إلا لينبهه إلى خروجه هو عن النظام والطاعة .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٦)

* * *

openkandl.com